(42) والزهد في الحياة بكل مظاهرها، استخدم المسيحيون في إرساء شهوائهم كل وسائل العبث والترف والقسوة، فمن عزلة مصطنعة إلى تزمت مفتعل، ومن تثليث لا يستقيم إلى وثنية مستهجنة، ومن تمسك باللاهوت إلى ابتزاز للحرية، كل ذلك يتراصف نماؤه بين أوهام موروثة، وخرافات مستجدة. واليهودية، بما كان يكتنفها من غموض في ستر العلم وتحريف للكلم عن مواضعه، واستيعاب لاستحصال المال، وجمع الثروة عن طريق الخيانة والربا والاحتكار.
والحنفية، وهي أسلم الأديان آنذاك عن الدس والتحريف الكبيرين، فقد أدخل عليها مع ذلك تزييف في بعض الوقائع، ومغالطة في طقوس الحج ومتابعة الوثنية، وارتباط قسم من العرب بها على أساس من التعصب للأخطاء الموروثة في تأليه الملائكة وتأنيثها، وعبادة الأصنام وتقديسها، ورؤية الشمس والقمر والكواكب بمنظار الأرباب. والجاهلية، وأرجاسها في الوأد، والبغاء، والربا، والزنا، وقتل الأولاد خشية الفقر، وأكل التراث وحب المال، ووراثة النساء كرها بما صرح به القرآن في آيات عديدة، ومواضع كثيرة من سوره (1). ألا يتناسب مع هذا الخليط العجيب من الديانات المحرفة، وتعدد الآلهة، أن يبدأ الوحي بنداء التوحيد لأول مرة، وقد كان ذلك كذلك، فاستنقذ الناس من عبودية الفكر، واسترقاق النفوس، واتجه بها إلى عبادة ا الواحد القهار، وهي عبادة تجمع إلى راحة الضمير، صدق العبودية دون إذلال، وصحة الاعتقاد دون انحراف، ابتعادا عن الخرافات والأساطير والمتاهات. وكان من الجدير بعد هذه الاستجابة، أن يتم تشريع الصلاة، لأنها تتضمن التوحيد والعبادة بوقت واحد. وحينما اتجهت القلوب بدأ تطهير النفوس بالخلق والأدب والصفاء

_____ (1) ظ: على سبيل المثال، العادات الجاهلية كما يصورها القرآن: النساء 19، 20، 21، 22، 23، 38، 127 + الأنعام: 140 + النور: 33 + الفجر: 17، 18، 19، 20.